الطريق إلى الفقه

تأليف

د. حسن بن إبراهيم الهنداوي
عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالرياض

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع

الطريق إلى الفقه

بسم الله الرحمن الرحيم

الطريق إلى الفقه

تأليف
د. عمر بن إبراهيم الشثري
عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية - جدة
الإدارة: ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات • حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز السلامة التجاري
هاتف - فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

• فرع الرياض: حي السويدي الغربي - بجوار أسواق اليمامة
هاتف: ٤٣٣٣٧٣١ - فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

http: //www. al-andalus-kh.com

E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com

مدخل

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

لا شك أن فضائل العلم كثيرة لا تحصى، والجميع يعلمها؛ فهي من القضايا المُسلَّمة المشهورة بين الخاصة والعامة، وهدفنا في هذه الرسالة الإشارة والتنبيه إلى شيء منها، تذكيراً للنّفوس، وحثّاً للهمم، وتتميماً للبحث، فمنها:

١ـ أن طلب العلم طريق إلى الجنة: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[١].

٢ـ أن العلم ميراث الأنبياء: كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[٢].

٣ـ أن العلم يبقى ذخراً لصاحبه، لا ينقطع بعد وفاته:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٤٨٦٧).

(٢) رواه الإمام أحمد، رقم (٢٠٧٢٣)، وأبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣١٥٧)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٠٦)، وابن ماجه، المقدمة، باب فضل العلماء، رقم (٢١٩).

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

٤ـ أن العلم علامة خير أراده الله بعبده: كما في حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين؛ وإنما أنا قاسم، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[٢].

وفضائل العلم كثيرة جداً، ولهذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يطلب منه المزيد من العلم، لعظيم فضله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (٣٠٨٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم (٦٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٧١٩).

وجليل قدره، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[(١)].

وامتن سبحانه بالعلم على رسوله ﷺ، فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[(٣)].

وأنكر جلّ وعلا أن يستوي العالم والجاهل، وأوحى ذلك إلى رسوله ﷺ فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[(٤)].

وبيّن عزوجل أنهم لا يستوون لكون أهل العلم أرفع درجات، وأعلى مقاماً، فقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ

---

(١) سورة طه: آية ١١٤.
(٢) سورة هود: آية ٤٩.
(٣) سورة النساء: آية ١١٣.
(٤) سورة الزمر: آية ٩.

ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[١].

وأوضح أن من أعظم هذه الدرجات، وأعلى هذه المقامات: خشية الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٢].

فلا غرو ـ إذا كان هذا مقام العلم، وهذه منزلته ـ أن يكون محل عناية الجميع، وحرصهم، واهتمامهم.

وقد ورد ذكر العلم في نصوص الكتاب والسنَّة بلفظين:

الأول: لفظ العلم: وهو الغالب، وقد تقدم ذكر بعض النصوص في ذلك.

الثاني: لفظ الفقه: وقد جاء في القرءان العظيم في مواضع، فمنها:

---

(١) سورة المجادلة: آية ١١.
(٢) سورة فاطر: آية ٢٨.

قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١].

وفي السنَّة: ما تقدم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وحديث: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[٢].

والفرق بين الفقه والعلم: أن الفقه خاص بما لا يمكن علمه إلا بشحذ الذهن، وتدقيق الفهم؛ ولهذا يقال فيه: فَقِه، أي فهم؛ وفقْه، أي فهم أكثر من غيره؛ ويقال: فَقُه يَفْقُه، أي صار الفقه سجية له وطبعاً، بعد أن لم يكن.

أما العلم فبخلاف هذا، إذ العلم عام، يشمل هذا

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٢.

(٢) رواه الإمام أحمد، رقم (٢٢٧٤)، وهو في الصحيحين دون قوله: «وعلمه التأويل» رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبدالله بن عباس، رقم (٤٥٢٦).

وغيره.

ولهذا كان الله موصوفاً بالعلم دون الفقه؛ لأن الفقه وصف من أوصاف النقص في بدايته، فهو لا يحصل إلا بالتدقيق والتحقيق، والله عزوجل منزه عن ذلك؛ إذ هو سبحانه عالم بكل أمر قبل كونه وبعده، ولم يأت علمه بعد أن لم يكن، لذلك يوصف تعالى بالعلم دون الفقه.

* * *

أنواع العلوم الشرعية

العلوم الشرعية ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علوم المصادر:

١ـ الكتاب العزيز، وما يتعلق به من العلوم والأصول، وفي رأسها: التفسير.

٢ـ السنَّة المطهرة، وما يتعلق بها من العلوم والأصول، وفي رأسها: الشروح.

النوع الثاني: علوم المقاصد:

١ـ العقيدة، وما يتعلق بها من المسائل والأحكام، وفي رأسها: التوحيد.

٢ـ الفقه، وما يتعلق به من المسائل والأحكام، وفي رأسها: العبادات.

النوع الثالث: علوم الوسائل:

وهي سائر العلوم المساعدة، وعلى رأسها: أصول الفقه، والقواعد الفقهية، والنحو، واللغة، والبيان.

وبهذا يتبين أن الثمرة الحاصلة من العلوم الإسلامية والمعارف الدينية: إما عقيدة وإما فقه.

أما العقيدة فمعلوم شأنها العظيم، ومقامها الرفيع، عند الخاصة والعامة، لا يتردد في إدراك ذلك أحد من الناس؛ إذ هي أصل الدين، وأساس الملة.

وأما الفقه: وهو «معرفة الأحكام العملية المتعلقة بأفعال المكلفين»[1]. فهذا لا يُدْرِك قدره، ولا يعرف مقامه إلا القليل من الناس.

---

(١) انظر الكوكب المنير، لابن النجار الفتوحي (١/ ٤١).

بل صار أمراً مهملاً عند كثير من طلاب العلم، رغم أن الحاجة إليه ماسَّة من الطرفين المذكورين: طلاب العلم، وعامة الناس.

بل هم أحوج إلى الفقه من كثير من مباحث العقيدة، لكثرة ما يقع لهم من الأحداث والأفعال والمسائل، ما يحتاجون معها إلى معرفة الأحكام في العبادات، والمناكحات، والمعاملات، والجنايات... إلخ.

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله تعالى، مبيناً فضل هذا العلم: (أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر في ثمرته، ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم؛ فإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق أبداً، وإن كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرءان، أو بالحديث، أو باللغة؛ واعتبر هذا بأهل زماننا فإنك ترى الشاب يعرف في مسائل الخلاف الظاهرة فيستغني، ويعرف حكم الله تعالى في الحوادث ما يعرفه النحرير من باقي العلماء.

وكم رأينا مبرزاً في علم القرءان، أو في الحديث، أو في التفسير، أو في اللغة لا يعرف ـ مع الشيخوخة ـ معظم أحكام الشرع، وربما جهل علم صلاته.

على أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم، فإنه لا يكون فقيهاً حتى يأخذ من كل علم بحظ، ثم يتوفر على الفقه، فإنه عزّ الدنيا والآخرة)(١).

وقال رحمه الله تعالى: (وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض، وهو مشتهى، والفقهاء يسمونه علم الكسالى؛ لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه، ولا يكادون يعانون لفظه، ويفوتهم المهم وهو الفقه.

وقد كان المحدِّثون قديماً هم الفقهاء، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث، والمحدِّثون لا يعرفون الفقه.

فمن كان ذا همة، ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم، وجعل جُلَّ شغله الفقه، فهو أعظم العلوم وأهمها.

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي ص ١٦٢.

وقد قال أبو زُرعة: كتب إليَّ أبو ثور: فإن هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلاً عن رسول الله ﷺ والذي صحَّ منه طرقٌ يسيرة[١].

فالمتشاغل بغير ما صحَّ يمنع التشاغل بما هو أهم.

ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطرق في كل الأحاديث غاية في الجودة، ولكن العمر قصير.

ولمَّا تشاغل بالطرق مثل: يحيى بن معين فاته من الفقه كثير، حتى إنه سُئل عن الحائض: أيجوز أن تغسل الموتى؟ فلم يعلم، حتى جاء أبو ثور، فقال: يجوز؛ لأن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أُرجِّلُ رسول الله ﷺ وأنا حائض[٢].

---

(١) هذا من باب التقليل، لينبه إلى ما هو أهم، وهو علم الفقه؛ أو التنبيه إلى أهم ما ورد من أحاديث الأحكام، وإلا فإن الذين رووا الحديث عن رسول الله ﷺ أضعاف هذا العدد، وما صح عنه ﷺ طرق لا تحصر.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله، رقم (٢٨٦).

فيحيى أعلم بالحديث منه، ولكن لم يتشاغل بفهمه.

فأنا أنهى أهل الحديث أن تشغلهم كثرة الطرق.

ومن أقبح الأشياء أن تجري حادثة، يُسأل عنها شيخ ـ قد كتب الحديث ستين سنة ـ فلا يعرف حكم الله عزوجل فيها)[1].

فهذا ابن الجوزي، خاض غمار الفنون، وسبح في لجج العلوم، فأدرك ـ من خلال تجربته، وطول خبرته ـ أهمية الفقه، وجلالته، وما يجب له من العناية والرعاية.

* * *

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

تعريف الفقه

وهنا وقفة مع كلمة الفقه ومدلولها:

فالفقه في الاصطلاح الشرعي: اسم عام لكلِّ ما جاء به النبي ﷺ من العلم بالعقائد والشرائع، وهذا مدلول قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١].

ثم صار الناس على هذا حتى كان زمان أواسط التابعين، فصار الناس يقسمون الفقه إلى قسمين:

الفقه الأكبر: وجعلوه خاصاً بمسائل العقائد.

والفقه **(مطلق)**: وجعلوه خاصاً بأحكام الشريعة.

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٢.

ثم صار الأمر إلى تسمية الفقه الأكبر بأسماء أخرى، فمنها: «السنة»، و«التوحيد»، و«الإيمان»، و«الشريعة»، و«الاعتقاد»، و«العقيدة».

وبقي اسم الفقه خاصاً ـ إذا أُطلق ـ بالأحكام العملية، وهو كذلك إلى اليوم، وأهله المختصون به هم الفقهاء.

* * *

طلب الحكم الشرعي

طلب الحكم الشرعي نوعان:

النوع الأول: الطلب للنازلة:

وله حالتان:

١ـ أن تكون النازلة ضيقة، فهذه تلزم مبادرتها بالحكم الشرعي، وهذه الحال لا يكون الأخذ فيها إلا بقول المفتي، الذي يُرى أنه أعلم وأتقى أهل زمانه.

٢ـ أن تكون النَّازلة واسعة تعمُّ بها البلوى، فهذه لا بدَّ أن يجتمع لها أهل الزمان ـ من الفقهاء ـ للاجتماع على فتوى، يُؤخذ بها في كلِّ فرد من أفرادها، وكلِّ عين من أعيانها.

وهذا هو المقصود بالنَّازلة عند الإطلاق.

النوع الثاني: الطلب للدراسة:

وله حالتان:

١ـ أن تكون الدراسة تحقيقية ترجيحية، بمعنى أنَّه يجب فيها التحقيق والبحث، والنظر والتأمل، حتى يحصل للدارس الترجيح في مسألة ما؛ وهذا شأن أهل الاجتهاد، القادرين على النظر في الخلاف وما تحته من المسائل والأدلة، والدلائل والترجيح بينها.

٢ـ أن تكون الدراسة تأسيسية تأصيلية، بمعنى أنها دراسة مبنية على منهج مقرر المسائل والقواعد والأصول، مقرراته مستقرة، يتعرف الطالب من خلالها على أصول المسائل، وما تحت أبوابها من الفروع المختلفة على سبيل المفارقة أو المقاسمة، حتى يكون مدركاً لعلم الفقه بكليته الجامعة، وشموليته الواسعة.

وهذا هو المقرر في كتب الفقه الكثيرة، المؤلفة على

مذاهب الفقهاء.

فإن قال قائل: ما الفائدة من ذكر هذه الحالات الأربع؟

كان الجواب عن ذلك: أننا نريد بيان منزلة الحالة الثانية من الطلب للدراسة ـ لكونها موضوع كتابنا ـ من بين حالات طلب الحكم الشرعي، حتى لا تلتبس على طالب العلم، أو تتداخل مع غيرها عند خوضه فيها، خاصة وأن دراسة الفقه الترجيحية قريب من الدراسة التأسيسية التأصيلية، بل الدراسة الترجيحية مبنية على التأسيسية التأصيلية، وكثير من طلاب العلم يقفزون إلى الترجيحية قبل إتقان التأسيسية التأصيلية فيقعون في الزلل، فيصوبون القول المرجوح، ويزيفون الراجح.

ودراسة الفقه التأسيسية التأصيلية هي محور كتابنا هنا، وهي الدراسة المقصودة عند إطلاق دراسة الفقه.

تاريخ الفقه التأسيسي التأصيلي:

بدأ الفقه التأسيسي التأصيلي بفتاوى الصحابة رضي الله عنهم وأقوالهم، وتفسيراتهم، وكان منهم جماعة عُرفوا بسعة العلم، ورسوخ القدم فيه[١]، فمنهم:

في المدينة: عبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم.

وقد تتلمذ على أيديهم جماعة من التابعين، كانوا نجوماً ساطعة، كابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم ابن محمد، وبقية الفقهاء السبعة[٢].

---

(١) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم ١/ ١٠.

(٢) الفقهاء السبعة، هم: سعيد بن المسيب (ت ٩٤)، وعروة بن الزبير (ت ٩٤)، وأبوبكر بن عبيد بن الحارث (ت ٩٤)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت ١٠٨)، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (ت ٩٨)، وسليمان بن يسار، مولى أم المؤمنين ميمونة رضية الله عنها (ت ١٠٧)، وخارجة بن زيد بن ثابت (ت ١٠٠)، وجعل بعضهم بدل أبي بكر بن عبيد: قبيصة بن ذؤيب الخزاعي (ت ٨٦)، وبدل عبيد الله بن عبدالله: =

ثم محمد بن المنكدر، والإمام ابن شهاب الزهري.

ثم صار الأمر إلى ربيعة الرأي، ثم تلميذه الإمام مالك بن أنس.

وفي مكة: عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وكان له أصحاب كثر، ومن أعظمهم: عطاء، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة.

ثم صار الأمر إلى ابن جُريج، وابن عيينة.

ثم صار إلى الإمام الشافعي، ثم الحميدي.

وفي الكوفة: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وله أصحاب كبار، وعلى رأسهم: علقمة بن قيس، وابن أخيه الأسود بن يزيد، ومسروق، وشقيق بن سلمة، وشريح القاضي.

= عبدالملك بن مروان (ت ٨٦)؛ وتراجمهم في (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٧ و٢٤٦ و٢٨٢ و٤٢١ و٤٣٧ و٤٤٤ و٤٧٥ و٥/ ٥٣).

ثم إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي.

ثم حمَّاد بن أبي سليمان، والأعمش.

ثم محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، والثوري، والإمام أبو حنيفة.

ثم أصحابه: أبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل.

وفي بغداد: التي بنيت في خلافة أبي جعفر المنصور، ظهرت جماعات من الأئمة الفقهاء، ومن أعظمهم: أبو عبدالله القاسم بن سلاَّم، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، وأبو عبدالله، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.

وكذا الشأن في البصرة، والشام، ومصر، واليمن.

وهكذا كانت نشأة الأئمة الأربعة من مدارس الفقهاء امن الصحابة والتابعين.

ونشأت ـ في تلك الفترة ـ مذاهب متبوعة، لما يقرب من ثلاثة عشر فقيهاً، هم:

١ـ سفيان بن عيينة بمكة.

٢ـ ومالك بن أنس بالمدينة.

٣ـ والحسن البصري بالبصرة.

٤ـ وسفيان الثوري بالكوفة.

٥ـ وأبو حنيفة النعمان بالكوفة.

٦ـ والأوزاعي بالشام.

٧ـ والليث بمصر.

٨ـ والشافعي بمصر.

٩ـ وإسحاق بن راهويه بنيسابور.

١٠ـ وأبو ثور ببغداد.

١١ـ ومحمد بن جرير الطبري، ببغداد.

١٢ـ وأحمد بن حنبل ببغداد.

١٣ـ وداود الظاهري.

لكن أكثر هذه المذاهب ظلَّ مفرقاً في بطون الكتب لقلة أتباعها، أو لانقراضهم.

أما المذاهب الأربعة فهي التي ظلَّت إلى يومنا هذا، فقد تقلبت في ستة أدوار:

١ـ دور التقييد لكتب إمام المذهب ومسائله وفتاويه التي دونها تلامذته.

٢ـ دور تدوين المجاميع الجامعة لجميع أقوال ومسائل وفتاوى إمام المذهب.

٣ـ دور المتون المختصرة، التي جمعت فيها الأحكام الفقهية التي كانت مشتتة في المجاميع، وتصنيفها على أبواب الفقه ترتيباً بدائياً.

٤ـ دور الاستقرار: بترتيب أبواب الفقه ترتيباً منطقياً،

وشرح المتون.

٥ـ دور جامع: اجتمعت فيه جميع أنواع التصانيف، من المختصرات، والمطولات، والشروح، والحواشي.

٦ـ دور تصحيح المذهب، وتنقيح الروايات، مع الاستمرار في أنواع التصنيف السالفة.

* * *

كتب العلم بعد استقرارها

ثم صار الناس ـ بعد هذا ـ يقرأون عِلْمي العقيدة، والفقه على ما كتبه أئمة الإسلام الأعلام.

ففي العقيدة: «السنَّة» للإمام أحمد، و«السنة» لعبدالله ابن الإمام أحمد، و«الإيمان» لابن منده، و«السنة» لابن أبي عاصم، و«التوحيد» لابن خزيمة، و«الاعتقاد» للالِكائي، وهكذا المصنفات في هذا الباب، إلى الأئمة المتأخرين، كشيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية، والحموية، والتدمرية، وغيرهم رضي الله عنهم.

والفقه: صار الناس يتعلمونه على مصنفات المذاهب الأربعة؛ كل أهل بلد على ما كان في بلادهم من هذه

المذاهب؛ يترعرعون في كنفها، وينبتون في أحضانها، حتى يرتقون صعداً في درجات الفقه، ويكونون من أئمته.

ثم عرض لبعض الناس ما عرض لهم من ملاحظات على بعض مسائل الفقه، التي لا نصيب لبعضها من النظر، ولاحظ من أثر، فتوافروا على نقدها، وأعادوا وأبدأوا فيها، ويتكاثر جمعهم، وتظافر جهدهم على نقدها، بل وتصغير القائل بها، وكان القصد حسناً إن شاء الله تعالى؛ والنقد لا يخالف في صحة مبدئه أحد، ما دام المقصود منه تنقية معادن العلم، وتصفية مشربه، وإزالة ما عسى أن يكون من كدره، أما أن يكون سبباً لهدم العلم، أو تصغير أهله، فهذا ما لا يقبل أبداً.

ولكن الخرق اتسع، حتى خشي أهل الصلاح أن يعجز عن رتقه الراقع، وكثر الكلام في هذا الباب، وظهر عدم الفهم فيه، حتى ظنَّ بعضهم أن علم الفقه لا يصلح لفهم السنن، ومعرفة الأحكام، والوقوف على الحلال والحرام.

وساعد على ظهور هذا الاتجاه جماعة من المشتغلين بعلم الحديث رواية، حيث انصب جلُّ اهتمامهم بعزوه إلى مصادره، والبحث في أقوال أهل الجرح والتعديل في رجاله، والحرص على معرفة درجاته، وبعضهم له اهتمام بعلل الحديث، وكلُّ هذه المجهودات بعيدة عن الاشتغال بفقهه، ومعرفة أحكامه، والاشتغال بهديه.

وزاد الأمر ما آلت إليه بعض المتون الفقهية المختصرة من تعقيد في العبارات والتراكيب، انتهجها بعض الفقهاء، فصعب فك عباراته، وتحرير ألفاظه، وفهم مراد كتابه، وتحديد ما في احتمالات ضمائره، فصعب الأمر على من لم يثن ركبه بين يدي العلماء، وزاد حنقهم على هذه الكتب، فرفضوها بالكلية، وشنوها حرباً على المتون، ومن ورائها المذاهب، ومن وراء كلّ ذلك علم الفقه بأجمعه.

ووجدوا ما انتهجه بعض الفقهاء من عدم عنايتهم بالدليل، إما بعدم إيراده، أو بإيراد ما ضعف منه، بل

بعضهم كان فيه كحاطب ليل، حتى أورد ما لا أصل له، والموضوع، والمنكر، والضعيف الذي لا ينجبر، فعزف هؤلاء عن هذا العلم، واتخذوا هذه الأخطاء متكأ يتكئون عليه في تبرير نهجهم هذا.



المنهج السليم في طلب علم الفقه

لا بدَّ من دراسة الفقه دراسة منهجية مرتبة على أحد المذاهب الأربعة، المعتمدة عند أهل السنة والجماعة.

فالتمذهب هو أجمع الطرق وأحكمها، وأيسرها في تحصيل الفقه بطريقة مأمونة مخدومة؛ فإن الأمة تناقلت هذه المذاهب بعناية تامّة، وخدمها الأئمة في كلّ زمان خدمة متتابعة، بالشروح، والحواشي، والاستدراكات، فضلاً عن التأصيل والتفريع، والاستدلال والتخريج؛ كلُّ هذا على وجه من التدرج المرتب في متون مختصرة، متدرجة بعضها فوق بعض، وكلُّ واحد منها يكمل الآخر، ويتممه.

فالمذهبية في بداية طلب الفقه التأسيسي التأصيلي ضرورة لا بدَّ منها، وقد أثبتت ـ عبر الأجيال ـ آثارها الحميدة، وآتت ثمارها المفيدة، ومن أواخرها علماؤنا الكبار، الذين يدور دولاب الشريعة ـ في هذه البلاد ـ على فقههم؛ فإنهم أخذوا العلم بهذا المأخذ، وسلكوا في طلبه هذا المسلك، حتى ترقوا فيه إلى درجات عالية في التحقيق والترجيح، وبلغوا مراتب في التفقيه والفتوى.

البدائل المطروحة:

يطرح الرافضون لمنهج العلماء في التفقه على مذهب من المذاهب الأربعة ثلاث طرق أخر، هي:

الطريق الأولى: التفقه على كتب الفقه المستقلين عن هذه المذاهب الأربعة، إمّا مع نسبتهم إليها، أو خروجهم عنها، ورفضهم لها.

وهذه الطريق من جنس الطريق التي ذكرنا أنَّها المنهج

الصحيح لطلب علم الفقه، لكونها طلب لعلم فقه إمام من الأئمة المعتبرين، لكنَّها غير سديدة، لأمور، منها:

١ـ أن هذه الكتب التي يتفقهون عليها كتب غير مخدومة خدمة متكاملة، كالخدمة التي نالتها كتب المذاهب الأربعة.

٢ـ أن هذه الكتب التي يتفقهون عليها ينقصها المدرسون المتقنون لها، في شرحها، وفك عباراتها، وحلِّ مشكلاتها.

٣ـ أن هذه الكتب التي يتفقهون عليها لا تُعلَم مرادات القائلين بعباراتها على وجه الدقة، ولا تعلم أصولهم التي كانوا يسيرون عليها، ولا أقوالهم المتقدمة والمتأخرة، وهذه عوائق عظيمة في سبيل الاستفادة ـ تفقهاً ـ عليها.

وحاصل هذه الطريقة: الفرار من كتب الفقهاء المعتبرين ـ عبر القرون ـ إلى كتب فقهاء غايتهم أن يكونوا معتبرين في زمنهم، وكتبهم محصورة خدمتها في

أشخاصهم، بخلاف كتب المذاهب الأربعة، فإنها كتب مخدومة بأنواع شتى من الخدمة، التي تجعلها خير ما يتجه إليه مريد علم الفقه، ولا يساميها في ذلك كتاب من كتب الفقه التي لم تنل تلك الخدمة؛ لأن كتب المذاهب الأربعة تـوافـر عليهـا مئـات، بـل آلاف مـن الفقهـاء والعلمـاء المتفننين.

الطريق الثانية: التفقه على كتب الحديث وشروحه، إمّا الأحاديث جملة، كالصحيحين والسنن، أو كتب أحاديث الأحكام.

وهذه الطريق مفيدة بلا شك، لكنها ليست منهجاً سليماً لطلب الفقه التأسيسي التأصيلي، إنما يصلح أن تكون مساندة له، متممة لنقصه، أما أن تكون بديلة عنه فلا؛ لأن دراسة المسائل الفقهية عن طريق النصوص الحديثية لا يحصل فيها الاجتماع والقسمة والتسلسل والحصر الحاصل من خلال كتب الفقه.

ثم هذه المسائل ليست سوى مسائل فقهية متناثرة، بثها الشارح في ثنايا شرحه، آخذاً لها من مذهبه الفقهي الذي تتلمذ عليه، وترك كثيراً من المسائل المتعلقة بها، والتي لا يمكن فهم الباب إلا بها، إمّا طلباً للاختصار، وإما لعدم مناسبة إيرادها عند شرح الحديث.

كلُّ هذا فضلاً عمّا في هذه الطريقة من خلط جامع للتخريج، ودراسة الأسانيد، والحكم على الأحاديث، ونقل أقوال الأئمة فيها، ثم المباحث الفقهية المتناثرة، ثم عرض المذاهب، ومناقشتها، والترجيحات، وما يدخل في ثنايا البحث من لغويات ونحويات، وأصول وقواعد، وكلُّ هذا يشتت الأذهان، ويثقلها عن التركيز على الأحكام، وضبط المسائل، واستيعابها استيعاباً شمولياً متكاملاً.

الطريق الثالثة: التفقه على كتب وبحوث الفقه المقارن، الذي لا يستقل بمذهب معين، بل يعرض المذاهب الفقهية الأربعة، أو يزيد.

وهذا ما تسلكه الجامعات الإسلامية اليوم، ابتداءً بما قرَّره الشيخ المراغي، شيخ الأزهر، حيث ألغى المذاهب في الأزهر، وقرر الفقه المقارن الشامل لجميع المذاهب، ثم تتابعت الجامعات على هذا المنهج.

ولا شك أن هذه الطريقة نافعة مفيدة، ولكنها للفقيه، المتمكن من أحد المذاهب الفقهية، الذي أخذ بعض متونه وشروحه، وأدرك مسائله ومفرداته، لا لخالي الذهن من ذلك.

فمن أنهى الدراسة التأسيسية التأصيلية، فليتوسع في دراسة مسائل الفقه على سبيل المقارنة والترجيح شيئاً فشيئاً، وهذا ما تفنى الأعمار دون إدراكه على سبيل الاستقصاء، على منهج متكامل من جميع الجهات: أصولاً، ولغة، واستدلالاً، وتصحيحاً، وتضعيفاً.

هذه ـ باختصار ـ الطرق الثلاثة التي يطرحونها بديلاً عن طريق التفقه على أحد المذاهب الأربعة، وقد تبين لك

أنها لا تصلح بديلاً عنها.

وقد أثبتت التجارب أن هذه الطريق التأسيسية التأصيلية هي الطريق الوحيدة الناجحة لدراسة الفقه، وأن هذه الطرق المطروحة، التي سلكها بعض الناس أثبتت أنها غير عملية، ولا يُحصِّل طالب العلم من ورائها ملكة الفقه، ولغة الفقهاء، والاستيعاب الشمولي لأبواب هذا الفن.

ولهذا قال العلامة المحقق، والفقيه المدقق، الشيخ محمد الصالح العثيمين: (ولا شك أن الإنسان ينبغي له أن يركز على مذهب معين، يحفظه، ويحفظ أصوله وقواعده، لكن لا يعني ذلك أن نلتزم التزاماً بما قاله الإمام في هذا المذهب، كما يُلتزم بما قاله النبي ﷺ، لكنه يبني الفقه على هذا، ويأخذ من المذاهب الأخرى ما قام الدليل على صحته، كما هي طريقة الأئمة من أتباع المذاهب، كشيخ الإسلام ابن تيمية، والنووي، وغيرهما، حتى يكون قد بنى على أصل.

لأني أرى أن الذين أخذوا بالحديث دون أن يرجعوا إلى ما كتبه العلماء في الأحكام الشرعية، أرى أن عندهم شطحات كثيرة، وإن كانوا أقوياء في الحديث، وفي فهمه، لكن يكون عندهم شطحات كثيرة لأنهم بعيدون عمَّايتكلم به الفقهاء.

فتجد عندهم من المسائل الغريبة ما تكاد تجزم بأنها مخالفة للإجماع، أو يغلب على ظنّك أنها مخالفة للإجماع.

لهذا ينبغي للإنسان أن يربط فقهه بما كتبه الفقهاء رحمهم الله.

ولا يعني ذلك أن يجعل الإمام ـ إمام هذا المذهب ـ كالرسول ﷺ، يأخذ بأقواله وأفعاله على وجه الالتزام، بل يستدل بها، ويجعل هذا قاعدة، ولا حرج، بل يجب إذا رأى القول الصحيح في مذهب آخر أن يرجع إليه).

إلى أن قال: (فلذلك أرى أن الإنسان يركز على

مذهب من المذاهب التي يختارها، وأحسن المذاهب ـ فيما نعلم، من حيث اتباع السنة ـ مذهب الإمام أحمد، رحمه الله)[١].

وأخيراً، فلا ينكر أحد أن الدعاوى اللامذهبية في دراسة الفقه قد أوقعت الأمة في عدّة نوازل، فمنها:

النازلة الأولى: قطع الصلة بين الأمة وأئمتها الفقهاء، الذين بذلوا أعمارهم في دراسة الفقه، وأدركوا مآخذه، وبذلوا جهودهم في خدمته؛ فهم إسناد الفقه، كما أن الرواة إسناد الحديث؛ فهؤلاء رواة، كما أن أولئك رواة؛ لكن رواة الفقه يمتازون بالفقه، والتهذيب، والبسط والتقريب، والترتيب والتبويب.

النازلة الثانية: تطويل الطريق على الطالبين، فطالب الفقه إذا بدأ من حيث بدأوا، وأراد أن يصل إلى ما وصلوا، لم يدرك من هذا شيئاً؛ لأن الأعمار تفنى دون

---

(١) العلم، ص ١٢.

تحصيل ما حصلوه.

أمَّا إذا بدأ من حيث انتهوا، فإنه يدرك ـ بطريق مختصرة ـ ما تحت هذا الفن من المسائل والفروع، على وجه محصور، ثم ينتقل إلى النظر والتحقيق في هذه المسائل، على وجه الاجتهاد، والترجيح، حسب ما رزقه الله من القدرة والآلة.

النازلة الثالثة: التي عمّت بلاد المسلمين، وفتحت للمثقفين أبواب الاجتهاد المطلق، والتقدم بالفتوى بين يدي أهل العلم، حتى صارت الشريعة حقاً مشاعاً لكل متحدث، بمجرد أن يحمل في نفسه غيرة وحماساً إسلامياً.

وأصبحت ترى في المجالس من يحلِّل ويحرِّم، ويرى أن هذا من حقه الشرعي؛ لمجرد كونه مثقفاً، متمسحاً بمسوح الديانة، مما أوقع الأمة في أنواع من الحرج الذي جاءت الشريعة برفعه، وانتهى إلى مصائب كثيرة، وما تزال

أفراد هذه التصرفات وأعيانها تقع يوماً بعد يوم في كل مكان من العالم الإسلامي.

وهذه بلا شك أعظم النوازل، حيث تندرج تحتها نوازل كثيرة، حدّها عدد الوقائع والأحداث.

ونخلص إلى أنه على طالب العلم أن يدرس الفقه بالطريقة التأسيسية التأصيلية على أحد المذاهب الأربعة، وعليه أن يختار المذهب القائم في بلده، الذي توافر فقهاؤه فيه، ليأخذ عنهم العلم.

لكن، ينبغي أن يُعلم أن أحسن هذه المذاهب، وأولاها بالاتباع، وأقربها إلى السنة، وأكثرها خدمة، وأشدها عناية، وأدقها تنقيحاً، وأوفرها تصحيحاً وتهذيباً، وأولاها بالحديث وأهله: مذهب الإمام المبجل الربّاني أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله تعالى.

وقد تكلم العلماء رحمهم الله في فضل الإمام أحمد، وجلالته، وما توافر عليه من الفنون، ما لم يتوافر لأحد،

فهو حامل راية الحديث والأثر، رواية ودراية، بل لا يُعلم من يتقدمه ـ في هذا الفن ـ على مرّ العصور الإسلامية، وكلامه فيه عمدة في عصره الذهبي، فضلاً عن عصور من جاء بعده.

أمّا القرءان العزيز وعلومه: من ناسخ ومنسوخ، ومقدَّم ومؤخَّر، وما ورد فيه من أحاديث وآثار فهو حامل رايته، وتفسيره المفقود وضع فيه عشرين ومائة ألف حديث دليل على صدق ذلك.

وفي اللغة العربية: كتب أكثر مما كتب أبو عمرو بن العلاء، وسعى من امتحنه ـ بين يدي الخليفة ـ ليجد عنده خطأ في عربيته فعجز، مع عسر الموقف الذي كان فيه.

وفي الفقه: كَتَبَ كُتُبَ أهل الرأي، وحفظها، ثم أعرض عنها؛ لما رأى قوة مذهب أهل الحديث، فأخذ به، وقد فقُه فِقْهَ المدرستين وأخذ بأحسن ما فيهما.

أما في الزهد، والورع، والفقر، والصبر، والعفاف،

فقد صار عَلَماً لمن جاء بعده، وقصصه في ذلك، ومواقفه المشرفة أصبحت مضرب الأمثال.

وهذا باب واسع، وكتب التراجم مليئة بأخبار الإمام أحمد رحمه الله تعالى فيما ذكرنا؛ وقد طوّل الحديث عن مكانة الإمام أحمد العلمية، وما تميز به فقهه عن غيره، ثلة من أهل العلم والفضل؛ منهم أبو الوفاء ابن عقيل، وأبو الفرج ابن الجوزي، وزين الدين ابن رجب، وعبدالقادر بن بدران رحمهم الله تعالى وغيرهم من الأئمة.

ولهذا قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين: (وأحسن المذاهب فيما نعلم ـ من حيث اتباع السنة ـ: مذهب الإمام أحمد رحمه الله).

ثم قال: (والغالب في مذهب الإمام أحمد أنه لا تكاد ترى مذهباً من المذاهب إلا وهو قولٌ للإمام أحمد؛ راجع كتب الروايتين في المذهب، تجد أن الإمام أحمد لا يكاد يكون مذهب من المذاهب إلا وله قولٌ يوافقه؛ وذلك لأنه

رحمه الله واسع الاطلاع، ورجَّاعٌ إلى الحق أينما كان)[١].

وعقد الشيخ البحاثة الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد مبحثاً في مزايا الفقه الحنبلي في كتابه «المدخل المفصل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل»، وقرَّر فيه تميز مذهب الحنابلة على غيره من خمسة وجوه، هي:

١ـ **عناية المذهب بالاعتماد على الدليل**: ولهذا كان الإمام أحمد إذا سُئل المسائل، قال: فيه حديثان؛ فيه أربعة أحاديث؛ فيه أحاديث جياد وحسان؛ وهكذا.

٢ـ **كثرة المسائل العلمية والعملية**: فهو أكثر الأئمة كلاماً في هذين البابين: باب المسائل العلمية العقدية، حتى صار إماماً ـ في هذا الباب ـ لا ينازعه من الأئمة أحد، وباب المسائل العلمية المتعلقة بأفعال المكلفين، من الحلال والحرام.

---

(١) العلم، ص ١١٥.

٣ـ اشتغال فقهاء المذهب بالمسائل الواقعة: واجتنابهم الفقه الافتراضي التقديري، الذي لا واقع له، أو لا يمكن وقوعه.

٤ـ البعد عن الإغراق في الرأي: وهذا راجع إلى اشتغال الإمام أحمد بالنص، واعتماده النقل حديثاً وأثراً، والاشتغال عليه منطوقاً ومفهوماً، دون الرأي المجرد.

٥ـ التيسير في الأحكام: ورفع أنواع الحرج في العبادات، والمعاملات، والمناكحات.

بخلاف ما يشيعه بعضهم عن المذهب، ومن نظر في المفردات، وقارنها، شهدت له بذلك. انتهى[١].

ولا شك أن المذاهب الأربعة كلُّها على خير، وطالب العلم إذا اجتهد في طلب العلم وتدرج في سُلَّمه، وصل إلى المراد الشرعي؛ وكلُّها طرق تؤدي إلى المقصود، وإن

---

(١) المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل: ١/ ١٣٧ بمعناه.

كان بعضها يفضل بعضاً.

وليس في هذا انتقاص لواحد منها، لكن المفاضلة الوجيهة ممكنة، وهذا شأن المخلوق.

فإذا تبينت لك هذه المقدمات، واقتنعت من صحتها، واعترفت بحاجتك إليها فاسلك طريق الطلب، واثن ـ بين يدي العلماء ـ الركب، حتى تلحق القوم، وتصفَّ مصافهم، وتكون واحداً ممن ينالهم شرفهم وأجرهم.

❊ ❊ ❊

عشرة أمور مهمة في طلب الفقه

والطريقة لطلب الفقه التأسيسي التأصيلي تتطلب عشرة أمور:

١ـ جمع المكتبة الفقهية.

٢ـ مفتاح التعامل مع المكتبة الفقهية.

٣ـ معرفة أنواع المصنفات الفقهية.

٤ـ العناية بالمختصرات.

٥ـ ملازمة الشيخ الفقيه.

٦ـ التحضير قبل الدرس.

٧ـ المذاكرة بعد الدرس.

٨ـ الصبر على العلم.

٩ـ العمل بالعلم.

١٠ـ تعليم العلم.

ولنأخذها بشيء من التفصيل:

١ـ جمع المكتبة الفقهية:

وهذا الأمر يحتاج إلى جمع انتقائي مركز.

ومقصودنا من ذلك: أن من مفاتيح الاشتغال بعلم الفقه جمع مكتبة فقهية منوعة، تشمل أمهات كتب المذاهب الفقهية الأربعة بطريقة مركزة، فيبدأ بالأهم فالمهم، مع التنويع بالمختصرات المعتمدة، وبعض شروحها، وبعض المطولات من كتب المذهب.

ففي المذهب الحنفي:

ـ الهداية: للمرغيناني.

ـ فتح القدير: لابن الهمام.

ـ البناية: للعيني.

ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للكاساني.

وفي المذهب المالكي:

ـ الرسالة: لابن أبي زيد.

ـ شرح متن خليل: للخرشي.

ـ الذخيرة: للقرافي.

وفي المذهب الشافعي:

ـ منهاج الطالبين: للنووي.

ـ مغني المحتاج في شرح المنهاج: للخطيب الشربيني.

ـ المجموع شرح المهذب: للنووي.

ـ روضة الطالبين: للنووي.

وفي المذهب الحنبلي:

ـ شرح مختصر الخرقي: للزركشي.

ـ التنقيح المشبع : للمرداوي .

ـ الإنصاف : للمرداوي .

ـ المبدع في شرح المقنع : لابن مفلح .

ـ عمدة الفقه : للموفق ابن قدامة .

ـ العدة شرح العمدة : للبهاء ابن قدامة .

ـ عمدة الطالب : للبهوتي .

ـ الروض المربع : للبهوتي .

ـ الإقناع : للحجَّاوي .

ـ كشاف القناع : للبهوتي .

ـ منتهى الإرادات : لابن النَّجار .

ـ الغاية في الجمع بين الإقناع والمنتهى : لمرعي بن يوسف .

ـ الفروع : لابن مفلح .

ـ تصحيح الفروع : للمرداوي .

هذه المكتبة الفقهية الجامعة لأمَّهات كتب الفقه في المذاهب الأربعة، من ملكها، وطالعها، وصارت له مراجعات كثيرة لمتونها وشروحها، حصَّل علماً كثيراً، وخيراً وفيراً.

لكن **الخطوة الأولى في هذا الباب**: التركيز على مذهب واحد فقط، يقتني كتبه، ويدرسها، ويجعل تركيزه عليها قبل أن ينظر في غيرها.

٢ـ مفتاح التعامل مع المكتبة الفقهية:

ويتم بثلاثة أمور، هي:

أ ـ موضوع الكتاب.

ب ـ ارتباطه بغيره.

ج ـ اصطلاحاته.

وهذه الأمور الثلاثة مهمة جداً، وتساعد الطالب على فتح أبواب العلم بطريقة ميسرة ومرتبة ترتيباً مسلسلاً.

فموضوع **كتاب المقنع لابن قدامة مثلاً**: متن في مذهب الإمام أحمد، يحكي فيه المصنف الروايتين في كلِّ مسألة ورد فيها أكثر من رواية عن الإمام.

وقد خُدم هذا الكتاب من أوجه عديدة، يعرف طالب العلم وجه ارتباطه بغيره من خلالها، فمنها:

١ـ شرحه ابن مفلح في كتاب المبدع.

٢ـ نقحه وصححه المرداوي في كتابه التنقيح المشبع.

٣ـ شرحه، وبيَّن الراجح من المرجوح من رواياته المرداوي في كتابه الإنصاف.

٤ـ جمع بينه وبين التنقيح وزاد عليه زيادات ابن النجار في كتابه منتهى الإرادات.

٥ـ جمع بينه وبين التنقيح الشويكي في كتابه التوضيح.

فإذا أدرك الطالب هذا التسلسل في كتب الفقه، وعرف موضوعها، وترتيبها، وترابطها، وما فيها من المصطلحات

استطاع أن يتعامل معها تعاملاً صحيحاً.

٣ـ معرفة أنواع المصنفات:

وهي سبع أنواع:

١ـ المتون المختصرة: وهي على نوعين:

أ ـ متون مختصرة على سبيل الابتداء، مثل مختصر الخرقي، والمقنع.

ب ـ متون مختصرة من كتب مطولة متقدِّمة: مثل: زاد المستقنع مختصر المقنع.

٢ـ الشروح الموضِّحة للمتون المختصرة: وهي على ثلاثة أنواع:

أ ـ شروح لإيضاح المعنى، وبيان المذهب، مثل: الروض المربع شرح زاد المستقنع.

ب ـ شروح لبيان المذهب، وإيراد الروايات المختلفة فيه، وذكر الخلاف في المذهب، مثل: شرح الزركشي

على الخرقي، والمقنع على الخرقي لابن البناء.

ج ـ شروح لبيان المذهب، وتفصيل المسائل، وإيراد الفروع، مع المقارنة بالمذاهب الأخر، مثل: المغني على مختصر الخرقي.

٣ـ الحواشي.

٤ـ كتب الخلاف في المذهب، وأعظمها: كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي.

٥ـ كتب التصحيح والتنقيح، مثل: تصحيح الفروع، والتنقيح المشبع، كلاهما للمرداوي.

٦ـ كتب المفردات التي انفرد بها المذهب عن غيره من مذاهب الأئمة الثلاثة.

٧ـ كتب الوفاق مع المذاهب الأخر، مثل: الفروع لابن مفلح، ومغني ذوي الأفهام ليوسف بن عبدالهادي.

هذه أنواع الكتب، وقد كثر التصنيف فيها، وخاصة

في مذهب الحنابلة.

٤ـ العناية بالمختصرات:

وذلك بابتداء طالب العلم بها، واعتبارها مفتاحاً لتأسيس هذا الفن وتأصيله، وتصويره في الذهن وتقريبه.

ولهذا قال العلامة الشيخ محمد العثيمين: (لا بدَّ لطالب العلم من مراعاة عدة أمور ـ عند طلبه لأي علم من العلوم ـ:

أولاً: حفظ متن مختصر فيه؛ فمثلاً: إذا كنت تطلب الفقه، احفظ زاد المستقنع؛ لأن هذا الكتاب مخدوم بالشروح والحواشي والتدريس)[١].

وقال حفظه الله: (خير منهج لطالب العلم: أن يشتغل بكتب الفقه المختصرة؛ ليتفقه بها على المذهب الذي يراه أقرب إلى الكتاب والسنة، وحين يترقى في العلم يقرأ

---

(١) العلم، ص ٢٢٩.

الكتب المطولة، ليزداد بها علماً)[١].

وقال حفظه الله: (وليبدأ الطالب بالأهم فالأهم، وبمختصرات العلوم قبل مطولاتها، حتى يكون مترقياً من درجة إلى درجة أخرى، فلا يصعد إلى درجة حتى يتمكن من التي قبلها، حتى يكون صعوده سليماً)[٢].

وقال رفع الله درجته: (كتاب زاد المستقنع في اختصار المقنع للحجَّاوي، وهذا من أحسن المتون في الفقه، وهو كتاب مبارك مختصر جامع، وقد أشار علينا شيخنا السعدي بحفظه، مع أنه حفظ متن دليل الطالب)[٣].

وقال حفظه الله مرة: (لا بدَّ لطالب العلم من مراعاة عدَّة أمور عند طلب العلم، ومنها: عدم الاشتغال

---

(١) العلم، ص ١٦٥.
(٢) العلم، ص ٦٩.
(٣) العلم، ص ٩٥.

بالمطولات، وهذه الفِقْرَة مهمة لطالب العلم، لا بدَّ أن يتقن المختصرات أولاً، حتى ترسخ العلوم في ذهنه، ثم يفيض إلى المطولات.

لكن بعض الطلبة قد يغرب، فيطالع المطولات، وهذا خطأ؛ نحن نقول: ابدأ بالمختصرات، حتى ترسخ العلوم في ذهنك، ثم إذا مَنَّ الله عليك فاشتغل بالمطولات؛ وقياس ذلك بالأمر المحسوس: أن ينزل من يتعلم السباحة إلى بحر عميق، فإنه لا يستطيع أن يتخلص، فضلاً عن أن يتقن)[١].

وقال سلمه الله من كل مكروه: (المهم لطالب العلم ألا يكون كثير المراجعة لأقوال العلماء؛ لأنك إذا أكثرت مراجعتك لأقوال العلماء، وجعلت تطالع المغني في الفقه لابن قدامة، والمجموع للنووي، والكتب الكبيرة التي تذكر الخلاف وتناقشه: فإنك تضيع.

---

(١) العلم، ص ٢٢٩ و ٢٣٠.

ابدأ أولاً ـ كما قلنا ـ بالمتون المختصرة، شيئاً فشيئاً، حتى تصل إلى الغاية، وأمَّا أن تريد أن تصعد الشجرة من فروعها، فهذا خطأ!)[١].

وقال أعلى الله منزلته في الدارين: (يحفظ من متون الفقه ما يناسبه، ومن أحسن المتون التي حفظناها «زاد المستقنع في اختصار المقنع» لأن هذا الكتاب قد خُدم من قِبَل شارحه منصور البهوتي، ومن قِبَل من بعده ممن خدموا هذا الشرح والمتن بالحواشي الكثيرة)[٢].

والمقصود من العناية بالمختصرات: حفظها إذا تيسر، وكان الطالب سريع الحفظ، أو تكرارها حتى تثبت مسائل المتن في ذاكرة الطالب.

وهذه المختصرات ـ لا شكَّ ـ تكوِّن للطالب قاعدة منهجية جامعة لأصول الأبواب وفروع المسائل، وبها

---

(١) العلم، ص ١٢٢.
(٢) العلم، ص ١٢١.

يدرك الطالب لغة الفقهاء لفظاً وأسلوباً، مفرداً وتركيباً، ويتعود على دقة اللفظ الجامع المانع، حتى تحصل له الملكة الفقهية، واللغة الفقهية، والتعبير الفقهي، وهذا مكسب عظيم، وهو عزيز في هذا الزمان، ومن كسبه كسب الفقه كله.

لكن ينبغي ـ كما قال ابن بدران ـ: أن يجتنب قراءة المختصرات اختصاراً شديداً، لعسر فهمها، وصعوبة إدراكها، وتخليطها على المبتدىء، باشتغاله المتشتت بين تتبع الألفاظ العويصة، ومعرفة ما يتزاحم عليها من المعاني الكثيرة، بالمنطوق والمفهوم، وبالإفراد والتركيب[١].

والمطلوب في ابتداء الطلب: أن تتصور المسائل تصوراً مجملاً للمسألة وشمولياً للباب والفن.

ولهذا قيل: المختصرات كتب تعليم وتدريس وتأسيس، والمطولات كتب بحث واجتهاد وترجيح.

---

(١) المدخل، لابن بدران، ص ٤٩٠.

٥ـ ملازمة الشيخ الفقيه:

وهو الشيخ الذي تأخذ عنه الفقه، فلا بدَّ في حفظ المختصر، وضبطه، وشرحه، وتحقيق ألفاظه، وتحرير عباراته من شيخ فقيه، يتقن هذا الفن.

يقول الشيخ محمد العثيمين: (يجب على طالب العلم أن يستعين بالله عزوجل، ثم بأهل العلم؛ لأن الاقتصار على مجرد القراءة والمطالعة يحتاج إلى وقت طويل، بخلاف من جلس إلى عالم يُبيِّن له، ويشرح له، وينير له الطريق؛ ولهذا يقال: من كان دليله كتابه فخطأه أكثر من صوابه.

فالطريقة المثلى أن يتلقى العلم عن المشايخ)(١).

وقال حفظه الله، وأعلى درجته: (ولنيل العلم لا بدَّ من تلقيه من معلم موثوق في علمه ودينه، وهذا الطريق

---

(١) العلم، ص ٦٣ و ٦٤.

أسرع، وأتقن للعلم؛ لأن أخذ العلم من بطون الكتب قد يضل به الطالب وهو لا يدري، إمَّا لسوء فهمه، أو قصور علمه، أو لغير ذلك من الأسباب؛ أمَّا طريق الشيخ ففيه المناقشة، والأخذ والرد مع المعلم، فينفتح بذلك للطالب أبواب كثيرة في الفهم والتحقيق)[١].

وقال حفظه الله: (مما ينبغي لطالب العلم مراعاته: تلقي العلم عن الأشياخ؛ لأنه يستفيد بذلك فوائد عدَّة:

الأولى: اختصار الطريق؛ فبدلاً من أن يذهب يقلب بطون الكتب، يمدُّ إليه المعلم ذلك بطريق سهل.

الثانية: السرعة في الإدراك؛ فطالب العلم إذا كان يقرأ على عالم فإنه يدرك بسرعة أكثر ما لو ذهب يقرأ في الكتب، لأنه إذا قرأ في الكتب تمر عليه العبارات المشكلة والغامضة فيحتاج إلى التدبر وتكرار العبارة، مما يأخذ منه الوقت والجهد، وربما فهمها على وجه خطأ، وعمل بها.

---

(١) العلم، ص ٦٨، ٦٩.

الثالثة: الربط بين طلاب العلم والعلماء الربَّانيين؛ لذلك القراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه)[١].

وقال حفظه الله، وأحسن خاتمته: (كون الإنسان يركز على شيخ من المشايخ، يجعله هو الأصل، لا سيما المبتدىء الصغير؛ المبتدىء الصغير إذا طلب العلم على عدَّة أناس تذبذب.

فملازمة عالم واحد مهمة جداً، ما دام الطالب في أول الطريق، لكي لا يتذبذب، ولهذا كان مشايخنا ينهوننا عن مطالعة المغني، وشرح المهذب، والكتب التي فيها أقوال متعددة، عندما كنَّا في زمن الطلب.

ففي أول الطلب، أنا أنصح الطالب أن يركز على شيخ معين لا يتعداه)[٢].

---

(١) العلم، ص ٢٣٢ و ٢٣٣.

(٢) العلم، ص ١١٠ و ١١١.

وأهمّ ما ينبغي العناية به من الأستاذ: الحرص على تقييد الفوائد، وتثبيت الشوارد الدقيقة؛ من حلِّ الألفاظ، وإيضاح المشكلات، وتقسيم المسائل، وذكر الفروق، وإعادة الضمائر، والتفريق بين المسائل والضوابط، ومعرفة المنطوق والمفهوم، وما فيه من الإشارة والعبارة؛ ومن فرَّط في هذا في وقته ـ زاعماً معرفته وإدراكه ـ فاته خير كثير، وصار يطلب صيده، فلا يجد إليه سبيلاً.

العلم صيد والكتابة قيـــــده   قيِّد صُيودك بالحبال الواثقه

٦ـ التحضير قبل الدرس:

وهذا ـ بلا شك ـ له فائدة عظيمة مجرَّبة؛ فإن الطالب إذا دخل المجلس وكانت عنده معلومة عمَّا يكون حوله الدرس من المسائل، وكان قد اطلع عليها اطلاعاً مجملاً، يتصور به تركيب الباب وما تحته من المباحث.

لا شك أنَّه إذا قدَّم هذا سييسر له فهم الباب وإدراكه بصورة أدق، وسيشتغل مع أستاذه بما هو أنفع.

وسيشتغل مع أستاذه بما هو أنفع.

قال ابن بدران رحمه الله: (اعلم أننا اهتدينا ـ بفضله تعالى ـ أثناء الطلب إلى قاعدة، وهي: أننا كنَّا نأتي إلى المتن أولاً، فنأخذ منه جملة كافية للدرس، ثم نشتغل بحلِّ تلك الجملة، من غير نظر إلى شرحها، ولا نزاولها حتى نظن أننا فهمناها، ثم نقبل على الشرح فنطالعه المطالعة الأولى، امتحاناً لأفهامنا، فإذا وجدنا فيما فهمناه غلطاً صححناه، ثم أقبلنا على تفهم الشرح على نمط ما فعلناه في المتن، ثم إذا ظننا أننا فهمناه راجعنا حاشيته، مراجعة امتحان لفكرنا، فإذا علمنا أننا فهمنا الدرس تركنا الكتاب، واشتغلنا بتصوير مسائله في ذهننا، فحفظناه حفظ فهم وتصور، لا حفظ تراكيب وألفاظ، ثم نجتهد على أداء معناه بعبارات من عندنا، غير ملتزمين تراكيب المؤلف، ثم نذهب إلى الأستاذ للقراءة، وهنالك نمتحن فكرنا في حلِّ الدرس، ونُقَوِّم ما عساه أن يكون من اعوجاج، ونوفر الهمَّة على ما يورده الأستاذ، مما هو زائد على المتن

والشرح.

وكنا نرى أن من يقرأ كتاباً واحداً من فن على هذه الطريقة سهل عليه جمع كتب هذا الفن، مختصراتها ومطولاتها، وثبتت قواعده في ذهنه، وكان الأمر على ذلك)[١].

٧ـ المذاكرة بعد الدرس:

وهي من الأمور التي قررها العلماء قديماً وحديثاً، فإن العلم لا يثبت إلا بالمذاكرة والمناقشة في مسائل العلم، على سبيل المحافظة على العلم، والخوف من نسيانه، ومداومة استحضار المسائل أصولاً وفروعاً.

يقول الشيخ ابن عثيمين: (من الأمور التي ينبغي لطالب العلم أن يهتم بها: المذاكرة.

والمذاكرة نوعان:

---

(١) المدخل، لابن بدران، ص ٤٨٩.

أولاً: مذاكرة النفس: بأن تجلس ـ مثلاً ـ جلسة وحدك، ثم تعرض مسألة من المسائل، أو تكون مسألة قد مرَّت عليك، ثم تأخذ في محاولة ترجيح ما قيل في هذه المسألة؛ وهذه سهلة على الإنسان، وتساعد على المناظرة.

الثاني: مذاكرة الغير: وهي واضحة؛ يختار من إخوانه الطلبة من يكون عوناً له على طلب العلم، مفيداً له، فيجلس معه، ويتذاكرون؛ يقرأ ـ مثلاً ـ ما حفظاه، كلٌّ واحد يقرأ على الآخر قليلاً؛ أو يتذاكرون في مسألة من المسائل بالمراجعة، أو بالمفاهمة، إن قدر على ذلك، فإن هذا مما ينمي العلم ويزيده؛ لكن إيَّاك والشغب والصلف؛ لأن هذا لا يفيد)[١].

٨ـ الصبر على طول الطريق:

لأن الفقه في الدين لا يُنال بالأمانيّ، ولا بالآمال،

---

(١) العلم، ص ٢٣٦.

ومداه بعيد لا يرتقى بالحبال القصيرة، ولا بالعزائم الضعيفة، وأعظم مظهر من مظاهر الضعف: كثرة التنقل بين الفنون، أو الشيوخ، أو الكتب، وهذه تحرم الطالب من خير كثير، وتمضي عليه السنون وهو لم يُحَصِّل شيئاً.

فلا بد من الصبر والاجتهاد، والمثابرة والثبات، وسلوك الطريق الصحيح للطلب.

يقول الشيخ ابن عثيمين: (يتعين على طالب العلم أن يبذل الجهد في إدراك العلم، والصبر عليه، وأن يحتفظ به بعد تحصيله، فإن العلم لا يُنال براحة الجسم؛ فيسلك المتعلم جميع الطرق الموصلة إلى العلم، ويثابر عليه، ويجتهد، ويسهر الليالي، ويدع عنه كلَّ ما يصرفه، أو يشغله عن طلب العلم. وللسلف الصالح قصص مشهورة في المثابرة)(١).

وقال سلمه الله: (من أهم الآداب التي يجب أن

---

(١) العلم، ص ٦٠.

يتحلى بها طالب العلم: الثبات؛ ومعناه الصبر والمثابرة، وأن لا يملّ، ولا يضجر، وألا يأخذ من كلِّ كتاب نتفة، أو من كلِّ فن قطعة، ثم يترك؛ لأن هذا الذي يضر الطالب، ويقطع عليه الأيام بلا فائدة.

فمثلاً: بعض الطلاب يقرأ في الفقه ـ مرَّة ـ: زاد المستقنع، ومرة في عمدة الفقه، ومرة في المغني، ومرة في شرح المهذب، وهكذا في كل كتاب، وهلم جرّا.

هذا ـ في الغالب ـ لا يُحصِّل علماً، ولو حَصَّل علماً فإنه يُحصِّل مسائل لا أُصول).

ثم قال: (اُثبت بالنسبة للكتب التي تقرأ، أو تراجع، واثبت بالنسبة للشيوخ ـ أيضاً ـ الذين تتلقى عنهم؛ لا تكن ذوَّاقاً، كل أسبوع عند شيخ... كل شهر عند شيخ)[1].

حُكي أن رجلاً حاول دراسة النحو ففشل، وانسدت

(١) العلم، ص ٥٠.

أمامه الأبواب، فأعرض عن طلبه، وأخذ يرتجز في سبِّه قائلاً:

لا بارك الله في النحو ولا أهلِهِ

إذا كان منسوباً إلى نِفْطَويهِ

أحرقه اللهُ بنصفِ اسمهِ

وجعلَ الباقي صُراخاً عليهِ

٩ـ العمل بالعلم:

وهو ثمرة من ثمرات العلم، وأمارة على إخلاص طالبه وحُسن قصده، فإنما العلم للعمل؛ ولا يُبَارَكُ للعالِم إذا لم يعمل بعلمه، بل قد يُحرم العلم.

ولهذا قيل: (يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل)[1].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» ص ٣٦، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومحمد بن =

وقد أنكر الله على أقوام من الأمم أنهم كانوا يعلمون ولا يعملون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١).

ووصفهم تعالى بأقبح الأوصاف، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

فإذا كنت ممن يطلب العلم ولا يعمل به، فما فائدة طلبك له؟

إن كنت تحمل العلم ولا يظهر أثره في عباراتك، وخلقك، ومظهرك، وسمتك، وتعاملك، فلم تتعلم؟

ثم قل لي بربك: ماذا عمل العلم بك، إن كانت

= المنكدر رحمه الله تعالى.

(١) سورة البقرة: آية ٤٤.

(٢) سورة الجمعة: آية ٥.

زيادته زيادة من كبرك وغرورك، وعلوك على الناس، واحتقارك لهم، وعدم اهتمامك بحاجاتهم وسؤالاتهم؟

لا شك ـ والله ـ إنَّ هذا غاية الحرمان، وعلامة السوء!

أجارنا الله وإياك من كل مكروه!

١٠ـ تعليم العلم:

وهو ثمرة أخرى من ثمرات العلم، التي ينمو بها، ويزكو في نفس صاحبه، ويرفع قدره بين النَّاس، ويفتح له من العلوم والمعارف، والمسائل والدلائل ما لم يكن له على بال، وهذا ما يشهد به أهل العلم على أنفسهم، ويعتبرونه من بركة العلم، وأسباب ثباته ونمائه، وكمال استحضاره، فضلاً عمَّا في التعليم من حفظ الشريعة، وحماية الملة.

ثم ما فيه من تحمل ميراث المرسلين، والقيام مقامهم في النَّاس علماً وعملاً.

وأخيراً، ما ينال صاحبه من أجر العلم الذي لا ينقطع عنه حتى بعد مماته، كما جاء في الحديث[١].



(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

وفي الختام

أُحذر طالب العلم، الذي يريد الفقه في الدين من عشرة أمور، وهي:

١ـ احذر الجلوس إلى الأصاغر.

٢ـ احذر الجلوس إلى الصحفيين.

٣ـ احذر الولوع بالغرائب.

٤ـ احذر العفوية (عدم التدرج).

٥ـ احذر التعصب.

٦ـ احذر الكتب التي تسلك مسلك التهجم.

٧ـ احذر أن تكون ذواقاً.

٨ـ احذر بريق (اللامذهبية) بحجّة الحرص على طلب الدليل.

٩ـ احذر بهرج الفقه المقارن، بحجّة البعد عن التعصب.

١٠ـ احذر أن تسود قبل أن تَفَقَّه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الفهرس



الطريق إلى الفقه